خطوات على الرمال

إلى معبد أبو سنبل

بقلم : محمود تيمور

الموصول من « أسوان » الى « أبى سنبل » وسائل ثلاث :

الاوليان منها قائمتان فعلا ، ويمكن اتخاذ احداهما • والثالثة ما زالت فى طور الاعداد ، أو بالحرى فى عالم الغيب ، ولـكنك على الرغم من ذلك قادر أن تضـمها الى أختيها ، فكل ما كان فى عداد الآمال البعيدة أصبح سهل التحقيق ، ميسور الانفاذ ، ان لم تشهده اليوم فانت شاهده فى غد قريب •

كل وسيلة من تلك الوسائل الثـلاث لهـا مزايا وخصائص ، فالباخرة النيلية تحملك فى الذهاب والأوبة ثلاثة أيام على متن المـاء ، كانك فى فندق عائم ، تستمتع بنزهة ترفيهية مريحة • وفى الزورق الطائر « الهدروفيل » لا تلبث الا خمس ساعات فى الذهاب ومثلها فى الاياب • أما الوسيلة الثالثة المنتظرة فهى الطائرة ، واذا أنفذ مشروعها فلن تقطع فى الرحلة من الوقت الا بعض ساعة ••

واخترنا الزورق الطائر •

واجتمعنا نحن رفقة الزيارة فى بهو الفندق ، قبيل السحر ، وأقلتنا الحافلة الى المرفأ على مقربة من خزان « أسوان » ، والظلمـة غاشية ، والسماء ترسـل الينا من عليائها لمحات النجوم •

مثلنا أمام الزورق نتبينه على ضوء المصابيح ، لكأنه طائرة طافية بلا جناحين ، وهو حافلة نهرية تجرى على زلاجات فوق الماء ، فاذا مرقت حسبتها تسبح طائرة ، أو تطير سابحة •

ودخلنا جوفه ، واتخذنا مقـاعدنا فيه ••• ما أعجب أمره ، قاعاته على تعـدد طبقاتها متصل بعضها ببعض ، فى هندسة لولبية طريفة •

وتحرك الزورق الطائر ، على حين أومضت فى حواشى الأفق بواكير الفجر الجديد ، فكسته صبغة أرجوانية هادئة •

ولم يمض طويل وقت ، حتى طالعتنـا أنوار كهربيـة ساطعة من الشـاطىء ،

تصحبها حركة فوارة ... هـذه منطقة السد ، لا يخبو لهـا ضوء ، ولا تسكن لهـا ضجة ، فى ليل أو نهار .

وواصلنا السير سراعا ، كأننـا على موعد نخشى أن نخلفه ، وطلع الفجر يزف الينا ضوء الصباح ، فاستبانت لنا الدنيـا من حولنـا ، واذا نحن نرى قرى ناصعة البياض ، قابعة على النيل ، ما أشبهها بطيور جاثمة حطت رحالها بعد طول طواف .

وانفسح مجرى النيل ، فغـدا بحرا عريضا ، واشتد سـطوع الضوء ، وان لم يظهر من قرص الشمس الا أشعة تترامى من وراء التلال فى حذر واحتراس .

وتكاثرت صخور الشلالات القديمة على النهر ، كأنها غصة فى حلقه يضيق بها أيما ضيق .

وبعد حـين أخذ قرص الشمس يتسامى على التـلال ، ويعلن سطوته واقتداره ويرينا فى وضوح تلك القرى البيض بمعالمها وبمـا تضم من قصور شعبية رحيبـة ، أطبق عليها الصمت ، بعـد أن هجرها أهلوها لتغمرها بحيرة السـد ، وتصبح نهب الماء .

تنفت حوالى أستطلع الوجوه ، وأستبين الرفاق : السائحون الوافدون من أوربة الشـمالية هم أكثر من يضمهم الزورق ، وهـم مدججون بنظارات معظمـة ، وأجهزة مصورة ، كأنهم طلائع جيش للريادة والكشف ، وما أسرع أن وصل بيننا وبينهم مرح وأنس وارتفعت الكلفة ، وتشابكت محاورات ونكات وأفاكيه .

وبينا نحن نتطارح الحديث لاهين ، أحسسنا صدمة أصابت الزورق فى عنف ، فترنح على أثرها ترنحا أشاع فينا القلق ، ثم هدأت حركتـه ، ودار دورة عريضة فى النهر ، وبرز خادم السفرة ، فتصيدناه بالأسئلة ، وتضاحك الرجل وهو يردد : لقد نطحتنا سمكة كبيرة ، أو لعله تمساح اختفى على الأثر .

تمساح ينطح زورقنا الطائر ... أمر جلل !

وددت لو وقعت عينى على ذلك التمساح الناطح ، أشـهر سكان النهـر الخالد ، وهو يتخطر حرا طليقا وسط الأمواج فى هيبة واقتـدار . فلم تعد تشبع عينى تلك التماسيح المعروضة وراء القضبان تتقلب فى برك ضحلة خلال حدائق الحيوان . انها هنالك رهينة الأسر ، مهينة الجانب ، لا حول لها ولا طول ، تتنكر شخصيتها فلا تصلح الا لتلهو بها نظرات المتفرجين من خلق الله .

وددت هذا ، ولكنى وددته بعد أن اختفى أثر التمساح الجسور ، ونجا الزورق من عدوانه ، وأصبحنا فى أمن واطمئنان ! .

سرنا والتـلال الصخرية على الشـاطئين تسايرنا ، وجموع الأشجار والنخيل غاطسة فى الماء ، لا تظهر منها الا رءوس وأعناق ... انها تنبىء عن جزر غريقة كانت فيما سلف قرى عامرة ، وعما قريب يعلو السد ، فيغمرها الماء غمرة الأبد ، وكأن هذه

الأشجار والنخيل تتطلع الينا تطلع اليائس المشرف على الهلاك ، وتناشدنا أن نمد اليها يد الخلاص ... كلا لا سبيل الى انقاذك بحال ، فانما نهدر حقك فى سبيل غاية أسمى ، وغرض أجدى ، وفى سبيل النفع العام لا مبالاة بأشجار محدودة ، ونخيلات معدودة ، فكونى فداء لمصلحة المجموع ، وارضى بما قسمت لك الأقدار .

وجازت بنا بعض بواخر السياح ، تمشى الهوينى ، كأنها تختال على بساط من حرير ، على حين يقفز زورقنا الطائر ، كأنه فى مضمار سباق ، وتبادلنا التحايا ، وقلوبنا فى فرحة ، انها فرحة الملتقى بين رفاق جمعت بينهم وحدة الطريق .

ولاحت الأشرعة البيضاء على وجه الماء ، تؤذن بقرب الوصول .

وما لبث المجهار أن دوى يعلن بلوغنا معبد « أبى سنبل » .

وتدانينا من الجبل ، فظهر على سفحه لوح صخرى عظيم ، منقوشة فيه أربعة تماثيل ، تأخذ لبك أول وهلة ، بضخامة الأحجام ... تماثيل فى جلسة ركينة ترمى بنظرها الى النهر لتبادله نجوى صامتة سرمدية ...

وفصلنا عن الزورق ، ولامست أقدامنا أديم الصخر ، وسرنا على مهل خاشعين وأمامنا ذلك اللوح العجيب : أربعة من «الرماسسة» كأنها أربعة أطواد آدمية ، شقت حجب الزمن الكثيف المتراكم ، وبدت لنا حاملة على مناكبها أحداث العصور الخوالى ... انها ترحب بمقدمنا ، وتحمد لنا سعينا . أربعة «رماسسة» هائلة لا يكسوها الا تلك الحوذات العالية تحمى الرءوس ، رمزا للسيادة والغلب .

وكنا كلما قاربناها تضاءلنا ازاءها ، وأحسسنا تفاهتنا حيال تلك الضخامة البالغة ، لكأننا حقا أبناء « جلفر » فى بلاد العمالقة !..

وسموت ببصرى الى التماثيل ، وتذكرت قولة الكاتب الفرنسى «أندريه موروا»: ان الضخامة عنصر هام فى الفن ، وخاصة فى هندسة البناء ، فالضخم الهائل اذا روضته انقلب اعجازا ، وما كانت ناطحات السحب لتبدو على شىء من الجمال لو لم تكن عمالقة ضخمة » .

وها نحن أولاء تجاه معبد « رمسيس الثانى »، وكل شىء فيه من تماثيل وأروقة منقور فى صميم الجبل ... لقد تحول الجبل الأصم الأخرس تحت أزميل الفنان كائنا عظيما تدب فيه الحياة ... يا لذلك الفنان العظيم ، اذ أحال تلك البقعة الموحشة من صخر ورمال موطن تهجد وتعبد ، له قلب ينبض ، وأنفاس تتردد .

أنت أمام أربعة تماثيل « لرمسيس الثانى » ذات وضعة واحدة ، وعند قدميه أهل بيته ، تحف بهم آلهة من طير وحيوان . وهنا وهنالك على اللوح الحجرى المجسم تتشابك صور وشارات ورموز ، فتجعل منه مهرجانا فنيا منقطع النظير .

ودخلنا المعبد المنقور فى الصخر من باب بين أقدام « رمسيس » الكبير : عمد شاهقة ، وجدران عالية ، وتماثيل مجنحة ، ونقوش متزاحمة ، الى قاعات لأداء

الصلوات ، وسراديب لدفن الموتى ... وخرجنا منه الى معبد آخر عن كثب، هو معبد «هاتور» ، وعلى وجهته لوح تتعدد فيه تماثيل «لرمسيس الثانى» أيضا . كلها ناهضة على أهبة السير ، أو يخيل اليك أنها تسير .

ورجعنا الى المعبد الأول، ننظر عودا على بدء الى التماثيل الأربعة ، الجالسة جلسة الأبد ، وهى ترمق العالم حولها ، وكأن ما يحدث لا يعنيها منه شيء . لقد حسبت فى مستقرها أنها بمنأى عن الأحداث . ومنجاة من الخطوب ، ولكن الدنيا تدور ، ومايفلت من دورانهـا كائن على ظهر الأرض ، وقد جاءت نوبة هـذه التماثيـل ، على الرغم من اعتصامها بحضن الجبل وتحصنها به أحقابا سحيقة . وسيأتى غدا من يقصها قصا ، ويقتلعها اقتلاعا ، ثم يعلو بها الى رأس الجبل ليقـرها فيه . وستتجلى عظمـة العلم والصناعة فى نقلها على حالها ، كما تجلت عظمة الفن فى نحتها وتجسيمها. وان العلم لا يبذل هذا الجهد فى انقاذها لمجرد عقيدة ترعى ، أو تاريخ يذكر ، أو أثر يستبقى ، بل يبذله لبعض هذا ولشيء أجل منه وأزكى ، هو الفن ... نعم ، انه الفن !

ومن أجل هذا الفن تنفق الأموال الطائلة فى سخاء وطواعيـة ، على حين يجاهد العـالم فى سبيل توفير الأقوات لمن تحصدهم المجاعات . أترى الفن خـيرا من لقمة العيش وأجدى ؟ أتراه أثمن من أرواح البشر وأسمى ؟ أيكون أعز من الحياة وأغلى ؟

كلا ، ولكن الفن هو معنى العيش الذى به قوام الوجود ، هو نسمة الروح التى هى سر الكون ، هوجوهر الحياة التى يخفق بها قلب الانسان !

لا انفصام بين الفن والرغيف ،فالعيش دون فن عيش جامد يشيع فيه موات .

الفن للوجدان غذاء ، للنفس شفاء ، للروح رحيق .

الفن جذوة المشاعر الكريمة والنزعات السـامية ، وهو الذى يشق الآفاق الى أشرف الغايات .

ما قيمة الانسان الحى ، اذا لم يتهيأ له احساس مرهف ، وخيال منسرح ، وذوق رفيع ؟

كم يساوى الانسان اذا قامت مساومته بمعيار ما فيه من لحم وشحم ؟

تافه ثمنه كل التفاهة ، وما هو اذن الا رمة من الرمم !

كم يساوى العالم البشرى اذا أسقطت منه تلك القيم الروحية الأصيلة ؟

كم تساوى الدنيا كلها اذا خلت من خفق القلوب وومض الشعور ؟

ليست الحياة لقمة عيش ، بل هى فى أول الأمر وآخره مثل وقيم ومعايير ، وما لقمة العيش السائغة المريئة الا وليدة تلك المثل والقيم والمعايير . ولو بقى الرغيف حافا لا ادام له من الفن لاستحال غصة فى الحلوق تسد منابع الحياة ، وتهبط بالبشرية الى مستوى البهيمة العجماء ...

من هبة الفن جنينا أطيب ثمرات الرخاء والنماء والاسعاد ٠

من تلك الهبة النفيسة انبثقت الحياة ، وتطور الكون ، وتسامى الانسان ٠

لا تأسوا على ما يضيع من قناطير الذهب والفضة فى سبيل انقاذ نفائس الفن وذخائره، انما تنفقونها للابقاء على الانسانية نفسها فى أجل معانيها وأشرف مدلولاتها، وفى أعز ما تمخضت عنه عبقريتها على توالى العصور ٠

ان وقفتى حيالك يا «أباسنبل» ، أتملى سحر فنك ، وأنهل من جمالك الرهيب، لهى فى حسبانى أوفر كسب لى فى الوجود ٠

أحس وأنا خاشع أمامك بانتفاضة قدسية ، فكأنى فى محراب تزكو فيه روحى وتتطهر ٠

انى لأجثو بين يديك كما أجثو فى مزار عبـادة ، أقتبس من عبقريتك بصيصا يضىء لى السبيل ٠

وداعا « أبا سنبل » ٠

ولكنه وداع الى لقاء٠

سألاقيك وقد تنسمت ذروة الجبل ، والماء غمر يحيط بك ، ولـكنه لا يستطيع أن ينال منك ، وأن يحجبك عن عيون روادك ، الطالعين اليك من كل فج ٠٠٠ أولئك الذين يمجدون فى معبـدك وفى تماثيل رماسستك عظمـة الفن ، وعبقرية الفنان ٠ وهم فى الحق لا يحتفون برمسيس الكبير ، وان جلت مكانته وعظمت بطولته ، لحروب أقامها ، ولا لفتوحات ظفر بها ، فقد مضى عهد التباهى بالسيطرة والاخضاع، والتفاضل بالسيادة والسلطان ، وأظلنا عهـد جديد ينشـد أن تكون الحروب ، فى ميدان العلم والحضارة والفتوحات ، فى مجال الانشاء والتعمير ، عهد يهدف الى اسعاد البشرية ، وتوحيد سعيها تحت رايات السلام !